PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2025) 62(02):185-192
ISSN: 1553-6939

Narrativizing Cultural Identity in Contemporary Arabic Novels
Ibrahim al-Koni and the "Centralization" of the "Marginalized" Desert Space

Dr. Hamdani Abdelrahman

University of Djilali Bounaama, Khemis Miliana, (Algeria),
E-mail: abderrahmane.hamdani@univ-dbkm.dz

Received: 12/2024, Published: 02/2025

Abstract:

Contemporary Arabic novels seek to narrativize the cultural identity of the Arab-Islamic nation, aiming to elevate it from the margins unjustly imposed by Western centralism to its rightful position. This cultural identity is characterized by noble human values and intersections with various cultures, intellectual trends, and humanistic orientations.

The Libyan Arab novelist Ibrahim al-Koni has made extensive efforts to shift the "marginalized" desert space into the European "center." Through his prolific works, exceeding ninety novels and literary contributions, he has presented the desert space as a realm of richness, universality, myth, wonder, and noble values. His works have gained significant recognition in Western literary circles, with numerous translations into different languages and international awards across various European countries. Al-Koni has succeeded in globalizing the culture, magic, and identity of the desert, drawing it into the scope of European centralism's interest.

This paper explores the extent to which the "Konian" novel—named after Ibrahim al-Koni—has been able to express the Arab cultural identity as a desert-based identity. It also examines the techniques used to narrativize this identity, granting it the wonder, strength, and uniqueness needed to move it from the "margins" to the "center." The study aims to analyze this experience, shedding light on its main features, characteristics, and narrative strategies employed to affirm this identity.

Keywords: identity, narrativization, Arabic novel, Ibrahim al-Koni, desert, Arab nation.

تسريد الهوية الثقافية في الرو اية العربية المعاصرة
ابراهيم الكوني و"مركزة " الفضاء الصحراوي "المُهمَّش"

د. حمداني عبد الرحمن

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، البريد الإلكتروني: abderrahmane.hamdani@univ-dbkm.dz

الملخص:

تسعى الرواية العربية المعاصرة إلى تسريد الهوية الثقافية للأمة العربية الإسلامية وذلك بغية نقلها من الهامش المفروض عليها ظلما من طرف المركزية الغربية ووضعها في موضعها المستحق لما تزخر به من مقومات إنسانية نبيلة وتقاطعات مع شتى الثقافات والتوجهات الفكرية والانسانية.

ولقد قام الروائي العربي الليبي اراهيم الكوني بجهد وافر في نقل " المهمش" الصحراوي إلى " المركز" الأوربي من خلال انتاجه الغزيرالذي نيّف عن التسعين رواية وعمل أدبي؛ وقد جعل الفضاء الصحراوي ـ بما يحمله من غزارة وشمولية وأسطرة وغرابة وقيم نبيلة ـ يحتل الصدارة في الاهتمام الغربي بالأدب العربي فشهدت رواياته عديد الترجمات لشتى لغات العالم وكذلك ما لاقاه من احتفاء وجوائز عالمية في شتى البلدان الأوربية فاستطاع أن ينقل ثقافة الصحراء وسحر الصحراء وهوية الصحراء إلى العالمية ويدخلها في دائرة اهتمام المركزية الأوربية.

فإلى أيّ مدى استطاعت الرواية "الكونية" ـ نسبة إلى ابراهيم الكوني ـ أن تعبّر عن الهوية الثقافية العربية باعتبارها هوية صحراوية؟ وما هي الأساليب التي اتبعتها في سبيل تسريد هذه الهوية وإكسابها الدهشة والقوة والفرادة الكفيلة بنقلها من "الهامش" إلى المركز؟

نحاول في هذا المقال رصد هذه التجربة وبيان أهم ملامحها وخصائصها وأساليب التسريد المتبعة في تأكيد هذه الهوية.

الكلمات المفتاحية: الهوية ـ التسريد ـ الرواية العربية ـ ابراهيم الكوني ـ الصحراء ـ الأمة العربية.

مقدمة

يقوم الأدب بدور جوهري كبير في إنتاج الوعي بالهوية الثقافية للأمة، وذلك بوصفه جزءا من المادة الثقافية للأمة وبوتقة إنصهار لها، كما يعمل على تحقيق القوة الرمزية التي تمتلكها الثقافة في صورتها الإيجابية لمواجهة هيمنة المركز الغربي في ظل سيادة الضعف المادي والعسكري، نظرا لما يتمتع به من استقلالية نسبية عن المستوى المادي للمجتمعات.

ولقد سجلت الرواية العربية المعاصرة باعتبارها وجها من وجوه الأدب ، بل من أبرز تجلياته، حضورا لافتا في طرح سؤال الهوية في الذاكرة العربية الإسلامية في شتى الاتجاهات السياسية والاجتماعية والثقافية والاثنية والنفسية مما يؤدي إلى تراكم معرفي يؤكد أن الهوية بناء متشابك ومتحول لا يعرف الثبات.

سؤال الهوية في الرواية العربية: سؤال الهوية في الرواية العربية سؤال شائك ومتشعب يبحث في الحفريات التاريخية المعرفية للأمة قصد إعادة الاعتبار للأصلي المهمَّش لأن الذات العربية الاسلامية المهمَّشة في الخطاب الغربي تسعى إلى كسر طوق المركز الغربي بما تملكه من ثراء في التاريخ الانساني، فلا غرو أن يسعى الخطاب الروائي المعاصر إلى الحفر في اعماق التاريخ الممتد في الحاضر إلى مراجعة مفهوم الهوية من منظور إنساني يتغيا خلق مفهوم جديد للهوية يخرج بها من الوعي القومي المحدود إلى وعي اجتماعي أرحب ؛ كما نادى بذلك فرانز فانون وتبعه فيما بعد إدوارد سعيد حيث " إن جماع التاريخ للعالم الذي كان خاضعا فيما مضى للاستعمار : من شبه القارة الهندية وأندونيسيا والعالم العربي إلى معظم افريقيا هو التاريخ المؤسس لهذا التقديس الأعمى

الضال للدولة .. الأمة... كان ثمة تيار نقدي ابصر المخاطرالكامنة في القومية [1]، وأنه كما قال فرانز فانون بكل تلك الثبوتية وذلك الإيجاز الملغّز أيضا سيكون ضروريا ضرورة مطلقة أن يتحول الوعي القومي إلى وعي اجتماعي."[2]

بهذا المعنى الذي دعا إليه فرانز فانون وإدوارد سعيد جاءت انتاجات الروائيين العرب المنتمين إلى الهوامش والذين سعوا إلى الحفر في أعماق التاريخ، واستنطاق الإنثروبولوجيا وكل المكوِّنات الثقافية لإثبات فاعلية الهوية العربية الاسلامية وديناميتها في مواجهة التحديات الراهنة وإثبات خصوصية الأمة وشموليتها في آن واحد ومما يمكّنها تبوأ الصدارة والمركزية في عالم الهويات الثقافية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر نجيب محفوظ ، وحنا مينة، وعبد الرحمن منيف ، والطيب صالح ، ونصر الله ابراهيم . وغيرهم كثير

إلا أن ابراهيم الكوني احتل الصدارة وذلك لما قام به من عمل مبدع في نقل "الهامش" الصحراء إلى " مركز" الاهتمام العالمي والغربي وبما اضفاه على هذا الفضاء "فضاء الصحراء" من روعة وسحر وعوالم تخييلية وقيم إنسانية نبيلة تسعى إليها البشرية مما جعل هذا الفضاء وهذه الهوية محل اهتمام وإعجاب وتقدير ووعي بمركزية هذا المكوّن للحضارة الإنسانية.

<u>الكوني وتسريد الهوية العربية:</u> حظي ابراهيم الكوني باهتمام كبير في الساحة النقدية الغربية قبل العربية وذلك لما تفرَّد به من اهتمام بالموضوع الواحد متعدد الألوان ؛ ألا وهو موضوعة الصحراء، حيث استطاع بغزارة إنتاجه وبعوالمه التخييلية الساحرة أن ينقل إلى الغرب عالم الصحراء بكل مكوناته المادية والمعنوية التي زعزعت الصورة النمطية للإنسان الغربي عن الصحراء ؛ حيث غدت الصحراء التي كانت في مخياله عبارة عن جدب وقحط وحرارة وخيام وجمال وشمس وقفر وسراب وعطش..غدت هذه الصحراء عالما يزخر بشتى الرؤى الوجودية التي تعبِّر عن كنه الإنسان الصحراوي وتوغله في عمق التاريخ البشري الذي صنع حضارة مازالت آثار " التيفيناغ" شاهدة على قوتها وشموخها وسبقها في الإعمار البشري، كما استطاع ابراهيم الكوني استنطاق كل مكونات الصحراء من الإنسان "الطارقي" ومفاهيمه للوجود من خلال كتابه المقدس" آنهي" الموروث مشافهة عن الأجداد وعاداته وتقاليده ذات البعد الإنساني ..إلى جميع المكونات المادية والحيوانية للصحراء مما يكسبها بعدا اثروبولوجيا جديرا بالمساءلة والاستنطاق.

فابراهيم الكوني "الذي ينتمي إلى مجموعة بشرية مهمشة "الطوارق"داخل بلد مهمش تقافيا "ليبيا" من قبل هامش يعتبر نفسه مركزا "المشرق"[3] استطاع تسريد الهوية الثقافية العربية من خلال مكونها الصحراوي ليثبت

[1] إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط 4، 2014، ص 11.

[2] فرانز فانون: بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، ترجمة: خليل احمد خليل، دار الفارابي، ط1، 2001، ص 15.

للعالم أن الحضارة العربية الإسلامية هي المركز الذي يجب الاهتمام به واعطائه حقه من الدراسة والاستنطاق وبذل الجهود للحفر في شتى مكوناته التي تمثل ذخرا للإنسانية لا يمكن الاستغناء عنه.

تسريد الهوية الثقلفية الصحراوية عند الكوني: تختلف صحراء الكوني عن صحراء مدن الملح ل"عبد الحمن منيف" وكذلك صحراء الطيب صالح وسائر الروائيين العرب الذين اهتموا بالفضاء الصحراوي في أنها "تؤسس لتخييل صحراوي بربري يتميز بوضعية حكائية وأنثروبولوجية ولغوية خاصة"[4].

فلئن كانت صحراء عبد الرحمن منيف تصور انتقال العربي من بساطة الصحراء وفضاء الصحراء وعادات وتقاليد الصحراء وقيمها الروحية النبيلة إلى صخب المدينة وتعقيداتها وحضارتها المادية الموحشة الموغلة في الأنانية والفردانية والتمحور حول الذات ، ولئن كان الطيب صالح قد اهتم بالصراع شمال\ جنوب وبيان انتقام "الهامش" من " المركز" من خلال انتحار الجسد الأنثوي الغربي على الجسد الصحراوي الذكوري ممثلا في شخصية "مصطفى" الذي تربى في حضن الغرب ليكون سبب شقائه وعنوان إفلاسه؛ فقد عمل الكوني على إعادة تشكيل الواقع الصحراوي من خلال سكان فئة من الصحراويين يُعمِّرون حيزا واسعا منها ويحملون تاريخها العميق المبثوثة جذوره في عمق الوجود الإنساني ألا وهم: "الطوارق" في صحراء ليبيا والجزائر من خلال القيام بحفريات تاريخية ومعرفية في جذورهذه الحضارة المنسية والمُهمَّشة قصدا والتي لها خصوصياتها التي تميزها ولها وجودها الضارب في فجر تاريخ الانسانية إنها حضارة قائمة أولا على نسب الأم. يتحدث الكوني عن "أوداد" الذي ربته أمه في الصحراء متشبعا بكل مقوماتها " في الطفولة فطمته أمه وأخذته من يده لتريه الصحراء والكهوف، طافت به الجدران المرسومة وقالت له: إن هذا هو الأصل والتاريخ، حدثته طويلا عن الحيوانات المنقرضة، ومعاني الرموز والكلمات، قصَّت عليه أسطورة عن كل حيوان وكل إنسان سجله الأجدادعلى جدران الكهوف ثم أخذته من يده وعادت به إلى البيت لتعلمه كيف يتهجى الأبجدية ويقرأ التيفيناغ"[5].

يُعد الانتساب إلى الأم سننا مقدسا لا يمكن الخروج عنه لأنه خطيئة تجلب اللعنة "همة هو الذي كسر أقدم تقليد؛ فتنحى عن السلطة وتخلى عنها لابن خيه"أورغ" عندما داهمه مرض الحنين إلى المجهول وعزم أن يهاجر إلى صحاري "أضاغ"و"أزجر" ليعيش راحلا في الفلوات وبرغم أن "همة" هو السلطان الوحيد الذي لم يرزقه الله

[3] فاتحة الطايب: أسئلة القراءة وآليات التاويل، دار الأمان، المغرب، ط 1، 2015، ص 184.

[4] عثماني الميلود: العوالم المتخيلة في روايات ابراهيم الكوني، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص14

[5] ابراهيم الكوني: المجوس، الدارالجماهيرية للنشر والتوزيع، ودار الآفاق الجديدة، ليبيا والمغرب، ط1، 1991، ج1، ص 61.

بأخت تُنجب له وريثا إلا أن الناس لم تغفر له هذا المصاب واعتبرت انه سلم رقابهم في يد رجل مجهول الأصل واضعا الثقة في امرأة الأغراب" [6]

فبواسطة فك شيفرة "التيفيناغ" المنقوشة على الصخور والألواح الحجرية والمكتوبة على الجلود والأوراق تبرز الذات الصحراوية تحاور ذاكرة وجود موغل في القدم بقيمه وأعرافه وعاداته وتقاليده وحكمه المستقاة من "أنهي" الكتاب المقدس الذي ضاع في مسارب التاريخ. فكل ما في هذا الفضاء الصحراوي من أنساق يشارك في العوالم التخييلية للكوني؛ الخنفساء والعنكبوت والأفعى والجمل والرياح والودان وطائر الفردوس والذئب ومخلوقات الخفاء والجن والسحرة والفرسان والشيوخ والدراويش والعرافة والتجار كل هؤلاء يصنعون عالما سحريا تتماهى فيه الطبيعة مع الإنسان إلى حد التمازج والذوبان أحيانا. في رواية التبر يتماهى صوت الإنسان بصوت الجمل وإدراكه بإدراكه حتى ليجمعهما مصير واحد "لم يطق أن يرى صديقه يعاني من الإضطهادعلى أيدي الرعاة الأشقياء ، عزلوه عن قطعان الإبل خشية العدوى"..." يذهب معه إلى المراعي منذ الفجر ولا يعود إلاّ في الليل.. يقسو عليه أحيانا فيوبخه قائلا:" هذه نتيجة طيشك، ماذا كسبت الآن من مغامراتك؟".." ماذا فعلت بك ناقتك الناعمة؟ " يسبل الحيوان جفنه خجلا ويجيبه:"أ و و وع ع ع"[7] بل إن "أوخيد" لا يستطيع تحمل رؤية جمله الأبلق يعذب فينزل من مخبئه في الجبل إلى أعدائه الذين عجزوا عن القبض عليه فيسلمهم نفسه طواعية لينقذ جمله من العذاب ويتحمل هو أقسى ميتة في الصحراء. كذلك ما قام به "أوداد" من فداء للودان بنفسه حين رفض إخبار الصيادين عن مكان تواجده ليتحمل هو الصلب على الحجر مكانه فتسيل دماؤه على الصخور في تلك الصحراء العطشى" [8]

حتى الطيور في سردية الكوني لها القدرة على إدراك أسرار الوجود بل قد تتفوق على إدراك الإنسان أحيانا وإن جهله بلغتها يحول دون الاستفادة من معرفتها "الوقواق يريد أن يبوح بسر.. صياحه الملحاح يخبئ سرا..ترى ماذا يريد أن يقول الوقواق بأغنيته الغامضة؟" [9]

طائر الفردوس كذلك له حضوره اللافت في حياة الطارقي" إذ هو الطائر القادم من الجنة والحامل للمبشرات والأخبار السارة التي يحتاجها الإنسان الصحراوي في هذا الفضاء المقفر الموحش " قال لأمه في إحدى الأمسيات: الطائر الخفي يقول ما أحس به ولكن أين أجده؟.. أيُّ طائر يمكن أن يقول ما يحسه الناس؟"[10].

[6] المجوس ص75.
[7] التبر ص،21.22.
[8] انظر نزيف الحجر. ص،156.
[9] نداء الوقواق، ص،291.292
[10] المجوس، ج1، ص:79.

الريح او " القبلي" كذلك لها حضورها ولها دورها اللافت، حيث أفرد لها الكوني في رواية " المجوس" فصلا خاصا بل جعل أحداث الرواية كلها من نسجها وبسببها"[11] " وأخيرا هناك

غول كل العناصر في الصحراء، الغول الذي لولاه لما أصبحت الصحراء صحراءا، الريح... الريح رسولي الجنوبي المسمى القبلي له، مواهب خاصة يسير بتدبيري ومساعدتي وتسخيري فلا يغلبه غالب." [12]

لايتوقف الكوني عند مكوّنات الصحراء المادية بل يتوغل في تاريخها ساردا وقائعها مبينا الأحداث التي مرت بها وحالات التأثير والتأثر التي شهدتها بين مختلف الشعوب التي قطنتها أو مرت بها، يؤكد الكوني في رواية المجوس على فضل " المرابطين" الأمازيغ في نشر الإسلام في أدغال افريقيا بين قبائل الزنوج وجعل "تمبكتو"عاصمة للصحراء وما تبعها من أجزاء القارة التي شملتها الفتوحات." بلاد غرب وجنوب تمبكتو فتحها المرابطون ونشروا الدعوة في الأدغال بين قبائل الزنوج ثم جعلوا من "تمبكتو" عاصمة للصحراء وما تبعها من اجزاء القارة التي شملتها الفتوحات...نصَّبوا خاتمان سلطانا عليها ..فإلى خاتامان الحكيم يرجع الفضل في إقامة أول نظام إسلامي في قارة من الزنوج"[13]. كما لا يغفل الكوني التاريخ الحديث للصحراء حيث يروي في رباعية الخسوف تحالف سكان الصحراء " الطوارق" من شتى القبائل في ليبيا والجزائر في مقاومة الغزو الفرنسي والإيطالي للصحراء وما سطروه من بطولات وتلاحم واتحاد.

حتى الأسماء لها دلالاتها في تسريد ابراهيم الكوني للهوية العربية فهو يمزج بين أسماء الأعلام البربرية والعربية وحتى الإفريقية حيث تجد: تنيري واوخا وأوداد إلى جانب موسى والدرويش وابراهيم والقاضي الشنقيطي بابا وقبائل بامبارا والعرافة تميط..هذا التنوع في أسماء الأعلام يعكس تنوع الثقافات في الصحراء وتعايشها والإنصهار بين شعوبها..

لا يكتفي ابراهيم الكوني بتسريد واقع الصحراء، بل يلجأ إلى الأسطرة، فمدينة "واو" أو الفردوس المفقود هي حلم كل صحراوي، وكلهم يسعون في هذه الصحراء المترامية للعثور على هذه المدينة المفقودة المدين التي هبطت من السماء ثم اختفت ومن عثر عليها يعيش الحياة الأبدية السعيدة إنها تتراأى للقوافل وللباحثين عنها من بعيد ثم سرعان ما تختفي كما السراب وكثير من الرحالين والمغامرين يروون أنهم دخلوها وناموا فيها لكنهم في الصباح لم يجدوا لها أي أثر. " أفوس قال له مرة : الصحراء مثل الأغاني السماوية، إذا لم ترتو من لحنها قتلك العشق

[11] المجوس، ص 7.

[12] ديوان النثر البري، ص 243.

[13] المجوس، ص74.

والجنون،...تعلم من أفوس الحكيم ان لا أحد يستطيع ان يفهم سر الصحراء إلا من عاش في المدن وذاق طعم العبودية"[14].

خاتمة

نخلص في نهاية البحث إلى أن تسريد الهوية عامل من عوامل التصالح مع الذات وإثبات كينونتها ووضعها في مكانها المستحق الذي يعبر عن عمق جذورها في التاريخ وريادتها للإنسانية مما يسمح بتبوئها مركز الاهتمام الثقافي والمعرفي وتجاوز محاولات التهميش والتنقيص الغربي المتعمد لجعل هذه الأمة في خانة العالم الثالث أي في خانة المهمش الذي لا أثر له ولا تاريخ.

استطاع الكوني بالرغم من تركيزه على عالم الصحراء فقط أن يغير تلك النظرة القاصرة لهذا الفضاء الشاسع وأن يثبت حضوره وغناه وشموليته وقوته وأصالته. إن الكوني بفضل موسوعيته وقدرته على التخييل والأسطرة استطاع أن يخلق عالما روائيا بديعا قائما على الحفريات المعرفية والتاريخية في ضوء متغيرات الحاضر، وعلى الابتكار السردي الواعي بمعدن السرد وبجوهر الفن الروائي من خلال الفلسفة التي طرحها والتي تحتفي بحضارة تقوم على قيمة الأنثى "الأم" باعتبارها أصل كل خير غن نصحت وسبب كل شر إن فسدت"لولا تلك المرأة الجهنمية لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس" فحياة الصحراوي هي بحث عن النعيم والفردوس في الجنة المفقودة "واو" وهذا لن يتحقق غلا بالتخلي عن السبب الثاني لكل الشرور وهو الذهب أو المادة " إن المجوسي ليس من سجد للحجر، لأن الله موجدأينما وليتم وجوهكم ولكن المجوسي الحقيقي هو من باع الله مقابل المالواستبدله في قلبه بحب الذهب"[15]فهي دعوة إلى تجاوز الحجيم المادي الذي اغرقت فيه الحضارة الغربية الإنسان المعاصر والإحتفاء بالروح وبالقيم النبيلة التي تتعطش الإنسانية لتمثلها وهذا هو البديل الذي تحمله الصحراء اليوم وتحمله الحضارة العربية الاسلامية وهذا ما يضعها بحق في موضع الصدارة ويجعلها مركز اهتمام افنسانية وكل الثقافا لتحقيق "كنتم خير أمة أخرجت للناس."

المصادروالمراجع:

1. ابراهيم الكوني: التبر، دار التنوير، ط 2، 1992.
2. ابراهيم الكوني: المجوس ، ج1 وج2 الدار الجماهيرية 1991
3. ابراهيم الكوني: ديوان النثر البري، التاسيلي، 1992،
4. ابراهيم الكوني: نزيف الحجر، دار التاسيلي ، ط 2، 1992.
5. إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط 4، 2014،

[14] الجوس، ص 79.

[15] المجوس، ص 409.

6. عثماني الميلود: العوالم المتخيلة في روايات ابراهيم الكوني، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013
7. فاتحة الطايب: أسئلة القراءة وآليات التاويل، دار الأمان، المغرب، ط 1، 2015
8. فرانز فانون: بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، ترجمة: خليل احمد خليل، دار الفارابي، ط1،